

العلاقات التربوية والبيداغوجية

توطئة:

إن الأنشطة الإنسانية المبنية على العيش المشترك، محكومة بالاشتغال على العلاقات باعتبارها مفهوما وسلوكا يتغيا إيجاد الصيغ الملائمة لجعلها أكثر إيجابية وأكثر مردودية. ويقع النشاط التربوي بجميع مؤسساته وأبعاده (الأسرة، المدرسة، ...) في صلب هذه الإشكالية، لأن نجاحه مرتبط بتأسيس علاقات سليمة وجيدة بين مختلف الأطراف بهدف تيسير سبل التقدم وتوفير شروط العمل التربوي المرتكز على مبادئ الإنصاف و العدل والمساواة من أجل بلوغ جودة الفعل التربوي المتسم بالبحث والتجديد والابتكار والإبداع.

إن موضوع العلاقات في الميدان التربوي، بات يغري أعدادا متزايدة من المهتمين بالبحث والتحليل، لكنه مع ذلك، ينطوي على صعوبات منهجية وأكاديمية جمة، إذ إن العلاقات ليست نمطية ولا تخضع لمعايير واحدة لتصنيف تجلياتها داخل المؤسسات التعليمية، كما أنها لا تنضبط دائما لنفس العوامل والمتغيرات، ناهيك عن ندرة الدراسات والأبحاث التي تناولت الموضوع في المجال التربوي المغربي، ومن ثم فإن دراستها لا يمكن أن توتي أكلها منهجيا إلا إذا اعتمدت مقاربة مندمجة و نسقية يتكامل فيها البحث النظري والميداني، ويتمازج فيها البعد السوسيولوجي والثقافي والإيديولوجي بالبعد التربوي والنفسي.

لقد تعرضت العلاقات في جل المنظومات التربوية العالمية منذ نهاية الثمانينات من القرن العشرين لرجات وتحولات عميقة ومتسارعة إثر الانفجار الإعلامي والمعلوماتي المصاحبين لظاهرة العولمة. وقد أحدثت هذه التحولات تغييرات جذرية في التعامل مع الآخر، وأصبحت العلاقات الإنسانية بشكل عام، والتربوية بشكل خاص، والبيداغوجية بشكل أخص، شديدة التعقيد، بحيث شهد الميدان التربوي، منذ هبوب رياح العولمة، مستجدات كبيرة تركت بصمات واضحة على العلاقات التربوية، نجملها في ما يلي:

تعرض مفهوم السلطة التربوية لتغييرات جوهرية.

اتساع حيز مفاهيم حقوق الإنسان والطفل.

ظهور مفاهيم من قبيل: التعاقد، التشارك، الحق والواجب، المسؤولية والمحاسبة، الحكمة، التدبير بالنتائج... إلخ تداول مفاهيم تربوية تهم الانفتاح الكامل على المتعلم واهتماماته وميولاته

: في مفهوم العلاقة التربوية

أ:- مفهوم العلاقة التربوية حسب مارسيل بوستيك

مفهوم العلاقة التربوية مفهوم جد واسع، فهي "مجموع العلاقات الاجتماعية التي تتكون بين المربي والأفراد، الذين يربيهم، للسعي نحو تحقيق الأهداف التربوية داخل بنية مؤسسية معينة

"علاقات ذات خصائص معرفية وعاطفية محددة، تعيش استمرارا ولها تاريخ Postic. M 1979

ب- مفهوم العلاقة التربوية حسب جانين كلود فيلو

العلاقة التربوية ، كما تعرفها "جانين كلود فيلو"، هي عبارة عن تفاعل إنساني يتم بين أفراد يوجدون في وضعية جماعية ، وبما أن المكان الذي يتحقق فيه فعل التعليم - التعلم هو المدرسة عموما أو القسم على وجه التحديد ، فمن الملاحظ أنه داخل هذا الفضاء التربوي، تتأسس علاقات دينامية بين المدرس و التلاميذ تتخذ شكل انخراط في عملية تواصل مركبة، وتبليغ واستقبال للرسائل، وتبادلات وجدانية، وعمليات استكشاف ومقاومة. وتتميز هذه العلاقة بكونها:

أولا: علاقة إنسانية لأن تحققها يستدعي حضور وتفاعل العنصر الإنساني المتمثلا في المدرس و التلاميذ. ثانيا: علاقة تواصل بيداغوجي لأن التعليم هو بالدرجة الأولى، إقامة تواصل مع التلاميذ بشكل خاص ومع المجتمع المدرسي بشكل عام.

ثالثا: علاقة سيكولوجية و سوسيولوجية ،لأن فعل التعليم يتم في غالب الأحيان في إطار جماعة القسم، فهو ذو طبيعة جماعية.

وإذا كانت العلاقة التربوية لا تقتصر على العلاقة التي تربط المدرس بتلاميذه، وإنما تمتد لتشمل العلاقات التي تربط التلاميذ بزملائهم، والتي تربطهم ببقية الفاعلين التربويين في المؤسسات التربوية، فإنه مع ذلك تعد العلاقة التربوية التي تربط بين المدرس وتلامذته أهم هذه العلاقات جميعها، لما تمثله على صعيد الاحتكاك اليومي والتفاعل التربوي من أهمية بالغة.

إن العلاقة التي تربط التلاميذ بالمدرسين، كما يرى "ميشال جيلي" علاقة جد معقدة، ففي الوقت الذي لا يرى فيه المدرس في التلميذ سوى ذلك الكائن السلبي الجاهز للتلقي، واستقبال المعارف، مهملا الأبعاد الأخرى لهذا التلميذ، فإن هذا الأخير يرى في مدرسه رؤية مختلفة تماما، تعبر عن تمثلاته لمدرسه وتوقعاته منه، هناك إذن اختلاف كبير في التصور وعدم التوافق بين ما ينتظره كل واحد من الآخر، فالمدرس يجعل الصفات المدرسية كالامثال والاستماع والانصياع أساسا لاكتساب المعارف، وهو ما يضمن الاتجاه العمودي للمعرفة والسلطة (المعرفة.) (أوزي. 2000

نماذج من العلاقات التربوية 1

نموذج العلاقة التربوية السلطوية: وتنطلق من فرضية تقول بدونية المتعلم وسلبيته في علاقته بالمدرس،+ وضمن هذا النوع من العلاقة ينحصر دور المتعلم في الاستماع والتلقي والتخزين وإعادة إنتاج ما تلقاه عن طريق الحفظ والاستظهار، وفي هذه العلاقة، تأخذ المعارف والمعلومات مكانة أساسية على حساب البعد الوجداني.

نموذج العلاقة التربوية اللاتوجيهية: ويستند في هذه العلاقة إلى أسبقية الجانب الوجداني في العملية التربوية،

ويدعو المدافعون عن هذا النوع من العلاقة، ومن بينهم على الخصوص الأمريكي كارل روجرز، إلى جعل المتعلم مركزا للعملية التعليمية-التعلمية، بحيث يصبح هو المسؤول الأول والأخير عن تربيته الذاتية، ليقصر دور المدرس على تهيئة الشروط المادية والعلائقية بالدرجة الأولى، لتسهيل عملية بروز القدرات والكفايات الكامنة للتعلم، وذلك دون تدخل مباشر من المدرس.

نموذج العلاقة التربوية الفوضوية: وهو نموذج تنتفي فيه كل سلطة تربوية، وينمحي في إطارها شخص المدرس ليترك جماعة الفصل في حالة فوضى وحيرة، ويبقى التلاميذ في ظل هذا النوع من العلاقة متخبطين في وضعيات من القلق والاضطراب، سرعان ما تنقلص بظهور قيادات داخلية في صفوف التلاميذ تعوض المدرس الغائب ولو كان حاضرا.

العلاقة التربوية والعقد الديداكتيكي: أية علاقة؟

يمكن تعريف العقد الديداكتيكي بأنه مجموعة من القواعد الخاصة التي تكون القانون الذي يحكم العلاقات التربوية في الحقل البيداغوجي، وهو شرط ضروري لكل تواصل تربوي ناجح و فعال. (الدريج.م)
فالمدرس مدعو إلى التعاقد بشكل ضمني مع تلامذته، وذلك عن طريق تحديد المهام والأدوار والوظائف والأعمال التي يجب أن يقوم بها كل طرف في علاقته مع الجماعة، حيث لا بد من تحديد واجبات وحقوق التلاميذ من جهة، وحقوق وواجبات المدرس من جهة أخرى. كما يجب أن يبنى هذا التعاقد على سلطة المدرس وقدرته على ضبط وإدارة القسم، وهنا نميز بين سلطتين، هما:

أ- سلطة شخص (أستاذ كان أم مديرا أم مشرفا) متمكن من تخصصه، مطلع على تخصصات الآخرين، وضابط لآليات اشتغاله، وهذه سلطة مشروعة وغالبا ما يقبلها التلاميذ لأنها مبنية على سلطة معرفية وليس على القمع والاستبداد. إن هذا النوع من السلطة يسهل عملية التواصل بين أفراد جماعة الفصل الدراسي.
ب- سلطة شخص غير متمكن من تخصصه، غير مطلع على تخصصات الآخرين وغير ضابط لآليات اشتغاله، وهذه سلطة غير مشروعة لا يقبلها التلاميذ لأنها مبنية على القمع، وهذا النوع من السلطة يعوق عملية التواصل بين الأستاذ وتلاميذه.

(Pelpel, P. 1986)) وينبني العقد الديداكتيكي/ البيداغوجي على المراحل التالية

الإخبار: ويكون مشتركا بين المتعاقدين ومتعلقا بالبرامج والأهداف وأنواع التقويم ومدد الإنجاز، والمعطيات المادية

الالتزام، ويكون بمساهمة كل طرف في التوقيع، ولو بشكل ضمني، على العقد والالتزام بينوده خلال مراحل إنجازه.

الضبط: ويتعلق الأمر بتدبير سير العمل (بالاعتماد على وثيقة ميثاق القسم مثلا)، ومراجعته، كلما اقتضى الأمر ذلك، من طرف المتعاقدين.

التقويم: وهو مرحلة فحص مدى تحقق أهداف العقد

ويعتبر الرأي الذي يكونه المدرس بشكل قبلي حول نتائج المتعلمين عائقاً أمام تنفيذ بنود العقد البيداغوجي الذي "اتفق حوله جميع الأطراف، وهو ما يعرف في الأدبيات التربوية بـ "أثر بيجماليون".

أثر بيجماليون Effet de Pygmalion:

هو الأثر الذي تحدثه آراء وأحكام المدرسين المسبقة على نتائج تحصيل التلاميذ. وقد بينت دراسة قام بها كل من جاكوبسون و روزنتال حول مدرسي وتلاميذ مدرسة ابتدائية عمومية بالولايات المتحدة الأمريكية، أن هناك علاقة بين مواقف المدرسين القبلية وما يتوقعون تحقيقه، وبين ما تحقق فعلياً من نتائج دراسية، ومرد ذلك إلى علاقات التواصل والتفاعل التي يربطها المدرس مع التلاميذ وتقنيات توصيل خطابه إليهم، فمن خلال هذه المواقف القبلية يدعم بعض التلاميذ ويجعل تعليمهم إيجابياً ويدفعهم إلى كسب الثقة في أنفسهم. والنتيجة إذن أنه كلما كان رأي المدرس إيجابياً كلما عمل على تعزيز موقف التلاميذ من خلال حركاته وملاحظاته وكلامه وتوقعاته ، ويحدث العكس كلما كان هذا الرأي وأسلوب تعامله معهم سلبياً.

(Jacobson, L et Rosenthal, R. 1981).

العلاقات الإنسانية في المؤسسات التعليمية

تجدر الإشارة إلى أن العلاقات التربوية الجيدة تعتبر عاملاً من عوامل نجاح المؤسسة التعليمية وفعاليتها، والعلاقات الجيدة هي تلك التي يسودها الاحترام والثقة المتبادلين، إلى جانب التشجيع والتحفيز والدعم الاجتماعي ونشر ثقافة الاعتراف بالآخر، والاهتمام بالمشكلات التي تواجه الأفراد في بيئة العمل ومحاولة حلها بأساليب بناءة.

وفي المؤسسات التعليمية على اختلاف مراحلها، تمثل العلاقات الإنسانية عنصراً هاماً من عناصر استقرار المدرسين، وعاملاً من عوامل صحتهم النفسية والجسمية، ومؤشراً دالاً على رضاهم المهني ومردوديتهم التعليمية.

إضافة إلى أن المناخ التنظيمي الجيد يتوقف في جزء كبير منه على نوعية التواصل الفعال ونوعية العلاقات التربوية السائدة داخل فضاء المؤسسات التعليمية، والعكس صحيح، فإذا ما ساءت العلاقات وشابتها الصراعات لأسباب ذاتية في أغلبها، فإنها تفرز وضعاً مهنيًا وعلائقياً مضطرباً، وتصبح بالتالي مصدراً من مصادر الضغط النفسي، والإحباط الوظيفي، والذي ينعكس سلباً على صحة التلاميذ والمدرسين، ومردودية المدرسة وجودة الخدمات التي تقدمها.

ويمكن تقسيم العلاقات التربوية في المؤسسات التعليمية إلى علاقة المدرس بتلاميذه، وعلاقته بزملائه، وعلاقته بمدير المؤسسة و المشرفين التربويين.

أبعاد العلاقة البيداغوجية مدرس/تلاميذ

العلاقة البيداغوجية متعددة الأبعاد، وقد تم تأطيرها من قبل بعض الباحثين التربويين ضمن الأبعاد الأربعة التالية: البعد التاريخي، البعد البيداغوجي، البعد التواصل، البعد السيكلوجي. ونظرا لضيق الرأسمال الزمني المخصص لهذا العرض، سوف نقتصر على تحليل البعد السيكلوجي للعلاقة البيداغوجية لما لهذا البعد من أهمية بالغة في تجويد العلاقة وجعلها إيجابية، أو حدوث العكس إذا ما أهملنا الجانب النفسي.

:البعد السيكلوجي للعلاقة مدرس / تلاميذ

من خلال تحليل العلاقة مدرس / تلاميذ في بعدها السيكلوجي سوف نركز على تصورين مختلفين هما:

- تصور يعتمد على مركزية المدرس و سلطته في فعل التعليم و التعلم.
- تصور يعتمد على مركزية التلميذ و حريته في فعل التعليم و التعلم.

:الأسس و الأبعاد النفسية للنموذج المتمركز حول المدرس

من خلال هذا النموذج فإن المدرس هو الذي يفرض المحتوى المعرفي على التلاميذ انطلاقا من المقرر، إذ عن طريق الشحن و التكرار يصل إلى تلقين المعرفة. فهذه الممارسة لا تهتم بالتلميذ و نفسيته مما يؤدي إلى مخلفات نفسية على التلميذ نحدد منها ما يلي :

- **التعلم المؤقت**: إن التلاميذ داخل علاقة الفرض و الإلزام، يعتمدون إلى إرضاء المدرس و الآباء فقط، حيث ينسى التلاميذ كل ما تعلموه بمجرد انتهاء الفترة المحددة للتعلم.
- **التبعية** : إن النموذج المتمركز حول المدرس يؤدي دوماً إلى تعظيم هذا الأخير و اعتباره المنبع الوحيد للمعرفة و بالتالي إلغاء ذات المتعلم و إمكانياتها، الأمر الذي يكون تلاميذ عاجزين عن إبداء الرأي، لأنهم تعودوا دائما على الأخذ فقط دون أن يساهموا في العطاء.
- **السيطرة**: يذكر هذا النموذج دائما بعلاقة القوي بالضعيف، فالأول يفرض أفكاره بغية الحفاظ على سيطرته و هيمنته على الطرف الثاني، و يعتمد أدوات الثواب و العقاب، الأمر الذي يجعل العلاقة الإنسانية داخل الفعل التعليمي مفقودة.

:الأسس و الأبعاد النفسية للنموذج المتمركز حول التلميذ

إن هذا النموذج يهدف إلى حرية واستقلالية التلميذ أثناء فعل التعليم - التعلم، لذلك فإن تحليل الأسس النفسية لهذا النموذج سيرتكز على:

- الجانب الحيوي للتلميذ.
- الجانب المعرفي و تطوره.
- الجانب الانفعالي للتلميذ.

تحليل الجانب الحيوي

إن التلاميذ في هذا النسق البيداغوجي ينطلقون من خبراتهم الشخصية ، فالقسم بالنسبة إليهم وسط تلتقي فيه الخبرات المختلفة لكل التلاميذ ، وهذا ما يقوي ميلهم ورغبتهم للعمل ، و يزيد من حيويتهم عن طريق التفاضل و التكامل في الخبرات، و المدرس هنا كغيره من التلاميذ له مجاله الحيوي حيث يحمل خبراته الخاصة التي يمكن الاستفادة منها كما يمكن أن يستفيد بدوره من خبرات التلاميذ

تحليل الجانب المعرفي

إن العلاقة المتمركزة حول التلاميذ تحترم خصوصياتهم النمائية، لأنها تترك لهم حرية إدراك الأشياء من مواقف تعليمية يصنعونها بمحض إرادتهم، وفق درجة نموهم وليس وفق المدرس الراشد. إذن فالتلميذ هنا يعيش حياته الدراسية بتفكيره حسب خصوصياته المعرفية وليس حسب خصوصيات و تفكير المدرس.

تحليل الجانب الانفعالي

إن التطور والنمو الطبيعي يصاحبه التطور الانفعالي، وإن الإحباطات الاجتماعية والأوامر والنواهي يمكن أن تعرقل هذا التطور الطبيعي . ولقد بين "فرويد" في هذا الإطار أن الذات الخاضعة للمنع والقمع والإحباط تتأثر بذلك وتستجيب له بأساليب متعددة ومتنوعة، ذلك أن القمع الواقع داخل القسم يستمر في إحباط رغبات التلميذ الطبيعية، ويتحول عن طريق الكبت إلى منطقة اللاشعور لتيسير عملية التكيف بين ذات التلميذ والقمع الممارس من طرف المدرس، إلا أن تلك الخبرات اللاشعورية لا تموت بل إنها تظل كامنة ومتربطة لكل فرصة مناسبة للتعبير عن نفسها ، فهي خائفة من الواقع ولكنها تحتج و تهاجم انتقاما من حرمانها. ويعبر اللاشعور ، عن هذا الحرمان بعدة تقنيات أو ميكانيزمات (كالنسيان ، زلات اللسان، الصمت، الانسحاب النفسي، المخاوف).

إذن، من خلال التحليل النفسي نستنتج أنه في الحقل البيداغوجي يمكن أن نفرض على التلميذ ما نريد ونوجهه كما نشاء، إلا أن هذا لا يعني أن التلميذ مرتاح لتلك العلاقات المبنية على الفرض و حرمانه من حريته. إنما الأمر قد يكون تأجيلا للانفجار أو هدوءا كالذي يسبق العاصفة، فنتاج هذا النوع من العلاقة لن يكون سوى ازدياد عدد المشاغبين، و المحبطين نفسيا، والفاشلين دراسيا، وبالتالي زيادة العنف والعنف المضاد